الأجانب في البلاد العربية (*)

للدكتور جواد علي

في الكتب اليونانية القديمة أسماء مستعمرات أنشأتها الجاليات الأجنبية في البلاد العربية. تقع أكثرها على سواحل البحر الأحمر أو السواحل الجنوبية. وقد عني المستشرقون بالبحث عن هذه المستعمرات وعن مواقعها وآثارها. ومن أشهر هؤلاء المستشرق النمساوي الشهير المرحوم كلاسر في كتابه القيم «صورة تاريخ البلاد العربية وجغرافيتها[1]».

وقد أنشئت هذه المستعمرات على ما يظهر لتموين القوافل البحرية ولحراستها من هجمات قرصان البحر، ولإقامة البجارة والتجار. ولما ضعفت الأم وهزلت ولم يعد في إمكانها إمداد هذه المستعمرات بالمؤن والرجال استعرب من كان في هذه الثكنات الحربية واندمج في مجموعة القبائل العربية. وهذا ما يفسر لنا وجود بعض الكلمات الأجنبية في اللغة العربية قبل ظهور الإسلام بزمان طويل ووجود بعض القبائل العربية ذات السحن الغريبة في داخل شبه الجزيرة.

ومن جملة تلك المستعمرات مستعمرة «العيلاميين» Ailamiter المتاخمة لأرض المعينيين وقد ذكرها المؤرخ «بلينيوس» Plinius الشهير في جملة الأماكن التي ذكر أسماءها في أرض المعينيين[2].

ورأى المستشرق كلاسر أن هذه المستعمرة العيلامية هي من بقايا العيلاميين العروفين سكنة عيلام «ailam» سكنوا في هذه المنطقة بعد أن تمكن العيلاميون من الاستيلاء عليها وظلوا فيها بعد زوال دولة العيلاميين[3]. ويأتي هذا المستشرق بدليل هو أن هذه المنطقة التي نتحدث عنها وجميع أرض عمان قد كانت في عهد المؤرخ «بلنيوس» (Plinius) تحت سيطرة الأرشاكيين «Arsaciden»[1] وورد في نص «Adules» الأكسومي[2] إسم يشبه هذا الإسم هو «atalimu» «عظالم» من كلمة «عظم»[3]. وقد وردت هذه التسمية في كتاب «صفة جزيرة العرب» للعالم الشهير الهمداني الإختصاصي في تاريخ اليمن[4]. فلا يستبعد إذاً أن تكون هذه الكلمة محرفة عن «Ailamite» التي ذكرت في كتاب «بلنيوس» المذكور.

وتعرف المستشرق المذكور على مستعمرة أخرى هي «امبلونة» «Ampelone» وقد ذكرها بلنيوس أيضاً[5] ويرجح أن سكانها من «mifesier» اللاطيين اليونانيين[6]. وتقع في المحل المعروف باسم وادي العمود على مقربة من السواحل التي اشتهرت بالذهب وهي بلاد العسير[7] على رأي المستشرق شبرنكر «Sprenger». غير أن أوصاف هذا المحل لا تنطبق على الأوصاف التي ذكرها المؤرخ بلنيوس تمام الانطباق[8].

والأرجح أن يكون هذا المكان في الشمال بعيداً عن منطقة نفوذ السبئيين. وأحسن مكان يصلح لأن يكون محلاً مناسباً لسكنى اليونانيين هو في شمال الحجاز، على سواحل البحر الأحمر حيث تبعد المنطقة عن سيطرة السبئيين وحيث يمكن الاتصال بمصر وفلسطين.

والظاهر أن سكان هذه المستعمرة من «Miletbus» المكان الذي أنجب الفيلسوف طاليس «Thales» والفيلسوف انكسمندر «Anaximander» وانكسمانس «Anaximenes» وكان سكانه على جانب عظيم من الرقي والحضارة والذكاء. وقد ازدهرت فيه الحضارة في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. غير أن الخراب دب إلى هذا المكان فيما بعد منذ سنة ٤٩٤ قبل الميلاد

(*) من كتاب «العرب قبل الاسلام» للدكتور جواد علي وهو كتاب لم يطبع بعد.

(١) Glaser kizze der Gesch und Geogr Arabi 1890.

(٢) راجع تاريخ بلنيوس المتوفى سنة ٧٩ بعد الميلاد، Pliny natural History BK VII 6 sprenger p, 95

(٣) عن العيلاميين راجع The historians hit. of the world في القسم الخاص عن الفرس.

(١) راجع نفس المصدر.

(٢) Sprenger ski der ges p.96

(٣) نفس المصدر. راجع النصوص اليونية القديمة والكتب المؤلفة عن جغرافية اليمن القديمة.

(٤) الحسن بن أحمد الهمداني المتوفى عام ٩٤٠ للميلاد مؤلف كتاب الاكليل وكتاب «صفة جزيرة العرب» طبعة ملر Müller في مدينة لايدن «Leyden» سنة ١٨٨١ — ٩١ في جزأين

(٥) راجع Glaser p, 95

(٦) نفس المصدر ص ٩٧.

(٧) نفس المصدر ص ١٥٢.

(٨) Sprenger Alte p, 291

فارتحل أهله عنه وهاجروا إلى شتى الأنحاء حتى نسى المحل تماماً في عهد الإسكندر المقدوني الكبير[١].

واختار هؤلاء اليونانيون فرصة مناسبة هي فرصة انتقال الملك من المينيين إلى السبئيين . ففي هذا الوقت لم يكن شمال الحجاز كله بأيدي السبئيين ولم يكن لأهل اليمن أسطول قوي يسيطر على شمال البحر الأحمر فاختار اليونان ذلك المكان .

وليس من المستبعد ذلك فقد كان سكان « Miiethus » قد أنشأوا حوالي الثمانين مستعمرة انتشرت في ساحة واسعة على البحر الأسود وعلى بحر مرمرة وعلى سواحل البحر الأبيض . وأنشأوا لهم مستعمرة في مصر في عهد الفرعون « Psammetich » حيث ألفوا أسطولاً قوياً دخلوا به نهر النيل وسكنوا في أرض اختاروها سميت باسم مستعمرة نبكراطيس « Naukratis »[٢].

فمن الجائز كما يقول المستشرق موريتس أن يلتجئ جماعة من هؤلاء إلى الفرس بعد تخريب مستعمراتهم التي أنشأوها في مصر وأن يطلبوا حمايتهم ، وأن ينتقلوا إلى موضع آخر فاختاروا محلا لا يبعد كثيراً عن مصر ولا يعرضهم في نفس الوقت إلى اضطهاد المصريين ، هو المكان الذي أسسوا فيه مستعمرة « Ampelone »[٣].

وورد في تاريخ هيرودوتس « Herodotus » نقطة مهمة جداً تخص هذا الموضوع أثناء بحثه عن داريوس الكبير ملك الفرس ذكر أن هذا الملك حمل الملطيين « Milisiaus » معه أسرى إلى سوسه « Susa » حيث عاملهم معاملة حسنة ثم أسكنهم مدينة أمب « Ampe » التي أنشأها على سواحل بحر الإريتريا Erythiraean في النقطة التي يلتقي فيها نهر دجلة بهذا البحر[٤] . أما المدينة نفسها مدينة ملطية « Miletus » فقد استولى عليها الفرس[٥] .

أما موقع مدينة « Ampe » على حد وصف هيرودوتس فيجب أن يكون على الخليج الفارسي حيث يصب نهر دجلة فيه لا على البحر الأحمر كما يظهر ذلك من وصف الروماني بلنيوس « Plynius » إذ من المعلوم أن مصب نهر دجلة في ذلك الخليج .

على كل فسواء كان موقع « Ampe » أو « Ampelone » على الخليج الفارسي أو على البحر الأحمر فإن النتيجة واحدة وهي أن اليونانيين كانوا قد سكنوا مدينة أنشئت في بلاد عربية وعاشوا فيها وتاجروا ، ثم اندمجوا بعد ذلك واختلطوا بالوطنيين .

والأرجح أن يكون محل تلك المستعمرة على سواحل البحر الأحمر في شمال الحجاز . وفي أقوال ثيوفراستوس Theophrastus- « ٢٨٨ ق.م » ما يؤيد هذا الرأي[٦] . وأصبح هذا المحل في عهد « بلنيوس » تحت سيطرة الحكومة السبئية . ولما ضعف نفوذ هذه الحكومة تغلبت القبائل المتوحشة على هذا المكان كما يظهر ذلك من أقوال مؤلف كتاب « Periples maris Erythraei »[٧] فصار التجار يتجنبون جهد الإمكان هذا المكان .

يقول المستشرق كلاسر : كانت هذه المنطقة ملتقى مختلف القبائل . نقطة يجتمع فيها التجار من كل مكان . وقد كانت معروفة عند الكتاب اليونانيين والرومانيين وقد ذكر بطليموس أسماء عدة قبائل نزلت هذا المحل[٨] .

وتحدث ديودورس الصقلي عن شعب دبن « Deben » كان يسكن على سواحل البحر الأحمر في موضع يصح أن يكون في عسير . وهذا الشعب لا يضيف أحد من الغرباء إلا إذا كان الغريب من « Bootien » أو « Peloponnes » لاعتقاده وهذا يرجع إلى أسطورة قديمة إن هذه الشعوب الثلاثة ترجع في النسب إلى جد واحد هو هرقل « Hercules »[٩] .

وفي العهد القديم اسم موضع دعي « ياوآن » « Jawan »[١٠] ذكر في جملة الأماكن التي كانت تتاجر مع مدينة صور[١١] . تدل القرائن على أن المقصود منه موضع من المواضع الواقعة في جنوب البلاد العربية ولعل ذلك في اليمن[١٢] ، وقد يكون اسم قبيلة من القبائل العربية[١٣] وتطلق كلمة « Jawan » في أكثر آيات العهد

(١) على أثر الحروب فنقل أكثر السكان قسراً من هذا المحل . راجع الكتب البحثة عن حروب الفرس واليونان .

(٢) Moritiz Arabien p, 100 Strabo XVII 27

(٣) Herodotus 20 ampe في Moritoz p, 100

(٤) Herodotus 6 20 moritnz p, 101

(٥) راجع تفصيل ذلك في تاريخ الملك داريوس الأول كذلك في Herodotus 6. 20.

(١) Glaser p, 154 Theophrastus. Historia Plantarum.

(٢) Glaser. p, 154. Ptolemy. Geographia ed. Carolus. F. A voble.

(٣) نفس المصدر .

(٤) Glaser p, 154 Diodor. Histo. Bibli. 3, 43.

(٥) راجع حزقيال ٢٧ آية ١٩ .

(٦) راجع نفس المصدر أيضاً قاموس الكتاب المقدس جـ٢ ص٤٩٣ Hastings. p, 427.

(٧) نفس المصادر .

(٨) نفس المصادر .

القديم على اليونانيين ، فهل يمكن أن نجد صلة بين الإسمين ؟

قال بعض المستشرقين : المعقول أن يكون هذا الموضع اسم مستعمرة كان اليونانيون قد سكنوا فيها بدافع التجارة . لا سيما وقد ثبت عندنا أن الأجانب كانوا قد أسسوا لهم المستعمرات فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة . فمن المعقول أيضاً أن يكون موضع تلك المستعمرة فى (جينة) التى ذكره الهمدانى فى عداد الأماكن الواقعة فى أراضى «جهينة» الواقعة بين حرّة النار وبين الربذة[1] وقد ورد ذكره أيضاً عند البكرى فى جملة الأماكن التى مرّ بها الرسول حينما غزا بنى قريظة ثم بنى لحيان[2] .

وذكرت أسماء مستعمرات أخرى أنشئت فى مختلف أنحاء بلاد العرب . مثل أريتوزا « Arethusa » ولاريزا « Larisa » ومستعمرة كلسيس « Chalcis » وغيرها[3] . لم يذكر « بلنيوس » أماكنها بالضبط ولم يحدد مواقعها . فلا ندرى أكان يقصد من مدينة لاريزا « Larisa » مثلا مدينة لرسا « Larsa » أو لرسام « Larsam » التى ذكرت فى النصوص الأشورية ، أو أنه قصد محلا آخر . ولا ندرى أكان يقصد من أريتوزا « Arethusa » المحل الذى ذكره هو وهو بحيرة كان نهر دجلة يمونها بالماء[4] أم لا .

على أن هذه الأسماء الثلاثة هى من الأسماء اليونانية التى طالما يتكرر ذكرها فى الشرق ، وهى أسماء مدن حديثة أنشأها اليونانيون فى الشرق لإعادة ذكرى المدن اليونانية القديمة . فهناك مدينة أريتوزا « Arethusa » وهى مدينة أنشئت فى سوريا قديماً بين حمص وحماة . وأطلق اكزينوفون « xenophon » اسم لاريزا « Larisa » على قسم من أقسام مدينة نينوى القديمة وربما عنى بذلك ريزن « Resen »[5] وهنالك محل آخر عرف بهذا الإسم يقع فى منطقة أبامين (Apamene) فى الشمال الغربى من (حماة) (Hama)[6] . وأما كلكيس « Chalkis » فهو الإسم القديم لمدينة « قنسرين » « Kinnesrin » فى جنوب حلب واسم مدينة أخرى تقع فى جنوب البقاع بيكا «Bika» يرى اصطيفان البيزنطى «Stephanus Byz.» أن مؤسسها ملك يعرف باسم موئكسوس «Movixos» العربى ، وكان يطلق على هذا المحل « عين غار » وعرفت اختصاراً فى الأيام المتأخرة باسم « عنتار »[7]

واشتهر أحد ملوك السلوقيين وهو نيكاطور السلوقى «Nikator Seleukus» ببناء المدن وقد بنى ثلاث مدن حديثة فى فلسطين حملت نفس الأسماء المتقدمة الثلاثة . ولا يستبعد أن يكون هذا الملك قد أنشأ ثلاث مستعمرات بهذه الأسماء على سواحل البحر الأحمر لحماية الخطوط البحرية ولتموين السفن . ولما انتزع البطالسة أرض فلسطين من خلفاء هذا الملك كانت هذه المستعمرات فى جملة ما أخذ منهم[8] .

وورد فى النصوص اليونانية اسم « Insulae Dorical » أى جزيرة الدوريين . فهل لهذه الجزيرة علاقة باليونانيين الدوريين وهل حل هؤلاء فى شبه جزيرة العرب ؟

يقول المستشرق موريتس : لا نستطيع أن نقول شيئاً جازماً فى هذا الباب ، على أن هنالك جزيرة ورد اسمها فى نقش رسم لداريوس باسم « Imykuduru »[9] والظاهر أنها جزيرة سقطرة وهنالك جزيرة « Dioscorides » حل بها اليونانيون بقرون عديدة قبل الميلاد[10] يرى أنها هذه الجزيرة نفسها فلا يستبعد أن تكون جزيرة سقطرة إحدى الجزر التى نزل بها اليونانيون[11] . ويستشهد المستشرق بدليل ما ذكره المسعودى عن استيلاء الإسكندر المقدونى على هذه الجزيرة بإشارة من الفيلسوف المشهور أرسطو إليه[12] . وما ذكره المسعودى أيضاً من وجود النصرانية فى هذه الجزيرة أيضاً ، وهو قول يؤيده بعض الكتبة اليونانيين حتى قيل إن اللغة اليونانية كانت معروفة فى هذه الجزيرة إلى القرن السادس الميلادى[13] .

وورد فى «نقش رستم» اسم محل دعى بوتا « Pûta » فى ضمن

(١) نقلا عن صفة جزيرة العرب ج ١ ص ١٢١ . Glaser. p,428
(٢) نقلا عن Glaser. p, 429
(٣) راجع Moritnz p, 101 والمصادر التى تبحث عن المدن اليونانية
(٤) Glaser p, 157
(٥) Moritnz p, 101
(٦) Moritnz p, 101 Xenophon anle 3 § 7

(١) Moritny p, 101
(٢) نفس المصدر .
(٣) راجع نص «نقش رستم» والكتب المؤلفة عن داريوس الكبير
(٤) Mortinz p, 102
(٥) نفس المصدر
(٦) Mortinz p, 102 . نقلا عن المسعودى ج ٣ ص ٣٦ ، ٣٧ الطبعة الأوربية .
(٧) نفس المصدر

جدول أسماء الأماكن التي خضعت لهذا الملك . يرى المستشرق كلاسر أنه مستعمرة من مستعمرات اليونان الأيونيين (Ionions) الذين كانوا يسمون بهذا الإسم أيضاً . وحاول التوفيق بين هذه الكلمة وبين كلمة فودا «Foda» التي وردت في نص المؤرخ بلنيوس والتي عين محلها . وعلى هذه الفرضية تكون مستعمرة « Puta » مستعمرة يونانية من جملة المستعمرات التي أنشأها اليونانيون على سواحل البحر الأحمر[1].

وفي « نقش رستم » لداريوس أسماء أخرى كثيرة حاول المستشرق كلاسر أن يجد أماكنها في شبه جزيرة العرب من كلمة اسبردا «Sporda» حتى كلمة بوتا «Puta»[2]. وهو يجهد نفسه في ذلك إجهاداً بيناً ، ويأتي باحتمالات قد تكون بعيدة لتأييد وجهة نظره. فيحاول مثلا أن يجد مناسبة بين عبارة «واليونانيين الذين يحملون على رؤوسهم غطاء مصنوعاً من الشعر » وهي عبارة وردت في نص « نقش رستم » وبين عبارة وردت في كتاب « صفة جزيرة العرب » للهمداني[3] عن أهل مخلاف المعافر وما والاه من استعمالهم للسبكينية في الرأس[4].

كان اليونانيون على رأي المستشرق كلاسر وعلى ما يظهر من بعض الملاحظات الواردة في المصادر اليونانية القديمة وفي جملتها « الأوديسة »[5] على اتصال دائم بالعرب وذلك منذ أزمنة بعيدة قبل المسيح . والظاهر أن اتصالهم هذا كان عن طريق القوافل البحرية التي كانت تدخل في المياه العربيـــة ، وقد تركت تلك الرحلات البحرية انطباعات مخيفة في نفوس اليونانيين ظهرت في الأساطير التي رووها عن بلاد العرب فيما بعد[6].

وفي المصادر العربية إشارات وردت عرضاً فيها تأييد لما تقدم . غير أن البحث لا يستقيم في الوقت الحاضر إلا بعد زمان حينما يتسنى للعلماء إجراء حفريات علمية وتنقيبات أثرية في أماكن مختلفة من الجزيرة العربية ، وبعد دراسة النصوص اليونانيـــة والرومانيـــة والفارسية والحبشية وتحليلها وتدقيقها تدقيقاً علمياً صحيحاً . وسيظهر للأمة العربية تاريخ جديد تماماً عن العهد المظلم الذي سبق عهد الإسلام والذي تجهله تمام الجهل .

قد يحل لنا هذا البحث مشكلة عويصة قديمة هي مشكلة وجود كثير من الكلمات اليونانية والفارسية والأكـــومية (الحبشية) في اللغة العربية قبل مجيء الإسلام[1]. وقد ثبت وجود ذلك ثبوتاً لاشك فيه ؛ ثم مشكلة تشابه بعض الأساطير والعقائد التي كان يدين بها العرب مع الأســـاطير والعبادات المعروفة في السابق عند اليونانيين والفرس[2].

ثم مشكلة أخرى هي وجود بعض القبائل العربيـــة القديمة التي كانت تمتاز من أغلب القبائل العربية بصفات ومميزات لا يمكن أن تكون من صفات ومميزات الجنس العربي ؛ مثل زرقة العيون وحمرة الوجه وبياضه ولون الشعر وشكل الأنف والجمجمة وطول القامة وغير ذلك مما ذكر عن بعض القبائل العربية القديمة وهي قبائل ربما كانت قد استعربت واندمجت في العرب ونسيت أصلها والوطن الذي جاءت منه .

ثم مشكلة أسماء بعض القبائل وعاداتها وتقاليدها ثم أصنامها وما شاكل ذلك ؛ فكل هذه نقاط غامضة ستحل متى ما عرفنا بأن هنـــالك جاليات أجنبية كانت تنزل في بلاد العرب ولـــكن سرعان ما تندمج في هذا المحيط الجديد وتختلط بأهله وسكانه .

وفي التاريخ أمثلة ربما تؤيد هذا الرأي وتقويه ، فقبائل اليهود التي حلت في خيبر ويهود بني النضير وبني قينقاع ثم قبائل اليهود التي نزلت في اليمن بعد خراب المعبد على يد الرومان ، ثم القبائل اليهودية التي نزلت على شواطئ الفرات والتي كونت مستعمرات « الكالوته » هنالك وهي أشبه ما تكون بحكومات المدن[3] (City Kingsdoom) ثم القبائل السريانية المختلفة ؛ كل هذه استعربت وانتسبت إلى أصل عربي وافتخرت بالعرب مع أنها لم تكن من هذا الأصل .

وما بالنا نذهب بعيداً وعشائر « الصليب » أو « الصلبة »

(١) Glaser 337

(٢) نفس المصدر

(٣) راجع كتاب « صفة جزيرة العرب » طبعة D. H. Muller 2 vols Leyden 1884 — 91

(٤) Glaser p, 432 صفة جزيرة العرب ص ٩٩ س ١٣

(٥) Glaser p, 433

(٦) نفس المصدر Glaser p, 159

(١) راجع الكتب المؤلفة في هذا الباب .

(٢) راجع كتاب ولهوسن Wellhaussen Rest Arab Hied

(٣) راجع Scheerer History of the Jews Dubnow Jewish history.